ارتباك

info@darak-eg.com
02 24832669-010 27251915
51 ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

ارتباك
الشيماء عبد العال
تصميم الغلاف: أسامة علام
تدقيق لغـوي- تنسيق داخلي:
www.sekoon.com
رقم الإيداع: 2018/21113
الترقيم الدولي: 978-977-6634-12-1
الطبعة الأولى: 2019

الشيماء عبد العال

ارتباك

رواية

دارك
للنشر والتوزيع

إهداء

«إلى كُل من وقفوا بعيدًا مكتوفي الأيد يشاهدونني وأنا أسقط
لولا أعينكم التي كانت تشاهد ولا ترى ما كتبت اليوم شيئًا»

بيان

1

(هي وطواحين الذكرى)

نتعلم السكوت.. فيصبح منهاجًا نسير عليه حتى يضيع مع السكوت كُلُّ شيءٍ.. فتضيع معه الحياة.

الأيام التي غدت والآتية تحمل معها العديدَ من الأوجاع، أوجاع اعتقدت «نبيلة» أنها انتهت مع تقدُّم العمر، ولكن هيهات أن تنتهي؛ فهي تتجدد بشكل أعمق وكأنها تتطور مع تقدُّم الزمن بعُمقٍ أكثر من السابق أو ربما كانت تشعر ذلك لأن ما فات من الوجع قد اندمل ولم يعد يؤلم مثل السابق.. هكذا نحن عند لحظات الوجع الأولى؛ نشعر أن وجعنا لا مثيل له، وأن ذاك الألم الذي نبشَ بأظفاره في قلوبنا لن ينتهي وسوف يستمر إلى الأبد وريثما تمر الأيام فنجد ألمًا آخر يدب حوافرة في طريق لم تطأه قدم.. فتختلف المواقف، ولكنَّ الألمَ واحدٌ.

تجلس «نبيلة» على كرسيها الأثير تحمل «آدم» على كتفها وتربّت على ظهره في حنوٍّ بالغٍ وعيناها تقطران دمعًا صامتًا وساخنًا وهي

تستمع إلى كلمات أم «أمل» جارتها التي سكنت الشقة التي تعلو شقتها بطابق منذ خمس سنوات، وما لبثت حتى وطدت علاقتها بالأولى جيدًا، وما إن عرضت عليها «أمل» أن تسافر مع الأخوين إلا ووافقت لتمنيها أن تكون من نصيب عامر.

جاءت لتجلس معها لتؤنسها في غياب الثلاثة الذين شقوا طريقهم إلى القاهرة في سَفرة تكاد تودي بنفوسِهم جميعًا.. حاولت «نبيلة» أن تُسكِت أم «أمل» عن بعض تساؤلاتها التي أثارت حفيظتها قائلة:

- ماكانش له داعي سفر «أمل» معاهم.. تعبناها معانا.

لم تنتبه كثيرًا أم «أمل» أن «نبيلة» تحاول أن تغيِّر دفة الحوار إلى شيءٍ آخرَ بل ظنَّت أنها ربما تريد أن تشير إلى «عامر» وأمل في شيءٍ يضعهما بين قوسين يضمهما معًا للأبد.. فتبسمت قائلة:

- لا مفيش تعب ولا حاجة تعبكم راحة انتي عارفة حب «أمل» لعامر وبيان.

كانت تعني أن تقدُّم «عامر» على بيان، ولكن لم تكن رأس «نبيلة» تعي أيًّا من تلك التلميحات التي كانت ترمي لها فعادت أم «أمل» لتستكمل قائلة:

- يارب نفرح بيهم جميعًا.. وربنا يعوض على «بيان» بزوج صالح يتقي ربنا فيها.

لم تعلق «نبيلة» على أيٍّ مما يقال.. إلا أنها عندما سمعت اسمَ «بيان» فعادت أوجاعها إليها وكأنها قد فارقتها قائلة: «يا رب».

كُلٌّ يغني على ليلاه.. طواحين الهواء التي تعتمل بداخل رأس

«نبيلـة» لا يسـتطيع أن يوقفهـا أيُّ حديـثٍ.. لا كلام أم «أمـل» ولا غيرهـا ولم يسـتطع أن يخرجهـا مـن الوجـع غـير صـوت «آدم» وهـو يقـول بصـوت أجهـده البـكاء قائـلاً:

- تيتة.. ماما.. سِكينة.. عامر.

ذابـت أوجاعهـا عندمـا همـس بلقـب تمنتـه كثـيرًا (تيتـة).. ولكـن مـع بقيـة كلماتـه المتقطعـة وضـع عـلى جراحهـا مِلحًـا فربتـت عـلى ظهـره بضـع تربيتـات منتظمـة وهـي تهـز جسـدها جيئـةً وذهابًـا لعلـه يعـود إلى نومِـه.. أخذتهـا مـن أوجاعهـا مـرة أخـرى أم «أمـل» لتغـرق مـن جديـدٍ في بحـر تسـاؤلاتها وكلامهـا الـذي لا ينتهـي في محاولـة منهـا أن تخرجهـا مـما هـي فيـه والـذي لا تعلـم عنـه شـيئًا سـوى أنَّ «بيـان» مُتعبـة ولا تعلـم مـا كنـه هـذا التعـب الـذي يجعـل «نبيلـة» مهمومـة كلَّ هـذا الهـم.. فقالـت بفضولهـا الزائـد:

- هو فين أبو عامر؟؟ ماشُفتوش من ساعة ما جيت.

لم تجبهـا «نبيلـة» عـلى تسـاؤلها أو ربمـا تسـاءلت هـي أيضًـا.. أيـن أنـت يـا جـلال؟ ظلـت طيلـة حياتهـا تسـأل نفسـها هـذا السـؤال في كل موقف وفي كل حـين – أيـن أنـت – ولم تجـد أبـدًا لهـذا السـؤال أيَّ إجابـة في نفسـها.. في خلفيـة أفكارهـا كانـت أم «أمـل» تتحـدث:

- اللـه يكـون في عونكـم.. بـس ماقُلتليـش المحروسـة «بيـان» مالهـا؟ يـارب يكـون خـير؟

لم تجبهـا أيضًـا ليـس لحاجتهـا للسـكون، ولكـن كان هنـاك ضجيـج يعتمـل في رأسـها فغطـى عـلى كل شيء حولهـا فلـم تعـد تسـتمع إلا لـه..

كان يأتيها صوتُ أم «أمل» بعيدًا خافتًا.. ولم تتعجب من أنها لم تجد إجابة لأسئلتها التي انهمرت منها كسيلٍ لا يجد سدًا ليقف أمامه.

- هو أبو اسم الله عليه «آدم» مابيسألش عليه؟؟

ردَّدَت في نفسها «آآه منكِ يا أم «أمل» لمَ تصرين أن تفتحي جميع الجراح في آنٍ واحدٍ، ألا يكفيكِ ما أنا فيه!»

- هيَّ «بيان» كانت بتصرَّخ من يومين ليه كفى الله الشر؟ وسمعتك بتعيطي وتصرخي انتي كمان، أنا مارضتش أنزِلُّكم في الوقت المتأخر ده، حتى سألت «أمل» ماقالتليش حاجة غير إن «بيان» تعبانة شويتين، لعله خير إن شاء الله؟

«من يومين حدثَ ما لم يخطر على عقل بشر» هكذا رددت «نبيلة» في عقلها المنهك ولم تنبس ببنت شفة.. بل عضت على شفتيها حتى كادت أن تدميها.. لم تنتظر أم «أمل» أي إجابة وكأنها معتادة أن تتحدث ولا تجد ردًا لحديثها؛ فاستكملت قائلة:

- إن شاء الله خير.. إنتوا من خيرة الناس.

«خيرة الناس يا أم «أمل» ستصبح سيرتهم على كل الألسنة التي كلما حاولنا إخراسها تُعيد الكرة مرة أخرى».. ردَّد قلبها هذه الكلمات وانهمرت دموعها لتحاول مسحها حتى لا يراها الصغير الذي بدَّل نومته فارتكن إلى ذراعها يداعب سلسالها الذهبي المتدلي من عنقها.. مرة أخرى قالت أم أمل:

- هو اسم النبي حارسه «آدم» ماله؟

قالتها بعدما لاحظت تلك الربطات الطبية التي على عنق الصغير

وهـو يتـألم أحيانًـا وأحيانًـا أخـرى يلعـب ناسـيًا مـا بـه مـن ألمٍ.. ليتنـا كالأطفـال نتـألم فنلهـوا فننـسى الألم..

كانـت «نبيلـة» قـد أصابهـا مـن الضجـر مـا لا يحتملـه بـشر فقامـت مـن مكانهـا وهـي تحمـل الصغـير قائلة:

- أنـا هقـوم أنيِّـم «آدم» في أوضتـه.. البيـت بيتـك طبعًـا انتـي مـش غريبـة.

وهربـت مـن أمامهـا لتجـد الذكـرى قابعـة في مكانهـا عـلى فـراش «آدم» كوحـشٍ ينتظـر فريسـته العرجـاء؛ فلـم تسـتطع الهـروب منـه وتركتـه ليفترسـها في هـدوءٍ غـير مباليـة بأوجـاع الافـتراس؛ فـما تحملـه بداخلهـا أكـبر مـن أيِّ مخالـب سـتنهش في عقلهـا المنهـك الـذي هلهلتـه المصائـب مـذ كانـت «بيـان» في نفـس عمـر صغيرهـا ذي الثلاثـة أعـوام.

***

ذِكرى قديمة

في شـتاء قـارص يحمـل بداخـل طيَّاتِـه العديـدَ مـن الغيـوم التـي مـلأت السـماء فلبَّدتهـا وأخفـت معـالم شمسـها وقمرهـا فأصبحـت كدخـانٍ ناتـج عـن احـتراق السـماء بالشُّـهُب واسـتمر الزحـف الـذي حركتـه الريـاح وهـي تصـدر صريـرًا ترتجـف لـه القلـوب.. ولم تكـن الريـاح فقـط التـي تصـدر هـذا الصريـر بـل أيضًـا بـكاء «بيـان» الصغـيرة التـي تبـكي بـكاءً يلـين معـه الحجر.. وصدرهـا يئـزُّ كمرجـل عـلى نـار مـن كـثرة الارتجـاف الـذي كانـت بـه.

تحملهـا «نبيلـة» وتهـرول بهـا إلى صنبـور الميـاه البـارد لعـلَّ حرارتهـا تنخفـض وقلبهـا ينفطـر مـن بـرودة الميـاه عـلى جسـد الصغـيرة التـي لا

يتجاوز عمرها الثلاثَ سنوات وهي تبكي وترتجف من حرارة جسدها الذي يرتطم بالماء البارد فتتألم معه.. تلفها بمنشفة كبيرة وتخرج بها إلى الغرفة فتجد «جلال» الذي يحاول أن يستكمل نومه رغم كل هذا الصراخ فلا يجد بُدًّا من أن يستكمل دائرة الصراخ فيصرخ هو الآخر بدورِه:

- عاوز أنام، خُدي بنتك واطلعي بره.

لم يتكلف عناء السؤال عمَّا بها ولم تنطق «نبيلة» أيضًا، استكانتها كانت مثيرة للشفقة أحيانًا، وأحيانًا أخرى كانت تنتج عن ضعفِ مَن ليس له حيلة، ولكنها لم تكن لتعلم أن سكونها الذي تربَّت عليه سيكون سببًا في مأساة رأتها فيما بعد في أغلى ما عندها.. «بيان».

***

أخرجتها من أفكارها أم «أمل» وهي تنادي عليها قائلة:

- يا أم عامر.. «أمل» وعامر راجعين في الطريق إطمني.

سألتها «نبيلة» عن بُعدٍ قائلة:

- وبيان.. هي مش معاهم ولَّا إيه!!

لم تُجبها وكأنها تؤكد على تخمينها وساد الصمت إلا من أنفاس «آدم» الصغيرة.

* * *

2

(ثلاثتهم على الطريق)

تلك الطرق التي عليك أن تسير بها ولا تعلم ما الهدف المرجو منها تكاد في بعض الأحيان تصيبك بالجنون، بل ربما في كل الأحيان.

لم يكن «عامر» يعي من الأمر شيئًا سوى مشاهد الطريق التي تنبري أمامه مشهد تلو الآخر وكأنه يقلب في كتاب مليءٍ بالصور، ولكنها أصبحت مملة وهادئة بعض الشيء، ألفتها عيناه في رتابة فتركت باب عقله مواربًا لأفكاره لكي تتسلل كسرب نملٍ أتى من اللا شيء لكي يظفر بضحيَّته، لم يقاوم دبيبهم في عقله ولا حاول أن ينفض الأفكار التي احتلت عقله طوعًا بل استسلم لها في خضوع تاركًا عينيه تتأرجحان مع هزات الحافلة التي تقله إلى القاهرة ولا يعلم كيف ستسير سفرته التي لم يخترها بل فُرضت عليه رغمًا عن أنفهِ وعن أنف الجميع.

عامر شاب في الثلاثين من عمره لم تمر أيامٌ على إتمامه لعقوده الثلاثة التي لم يفعل بها شيئًا سوى إتمام شهادته الجامعية في هدوءٍ،

مثله مثل العديد من شباب غيره، يعمل مدرِّبًا في صالة رياضية لما يتمتع به جسده من عضلات مفتولة جراء دراسته الرياضية في كُلية للتربية البدنية في مدينته الصغيرة نسبيًا.. ساعده اللحاق بها أنه كان يلعب في مدرسته رياضةَ كمال الأجسام ولم يحالفه الحظ في أن يحوز على وظيفة حكومية كمدرس للألعاب مثلما يقولون.

ظلَّت أمُّه تنتظر أي فرصة لتعيينه على مدار عامين من تخرجه حتى سئمت الانتظار أو تغاضت عن أن يظهر انتظارها جليًا أمام الجميع قائلة جملتها المعهودة «لا أحد يعلم أين الخير»، «عامر» أيضًا لم ينتظر فشقَّ طريقه بين الصالات الرياضية كمدرب خاص أو كوظيفة لا تدر عليه الكثير من المال، ولكنه ظل يحاول دون أن يمنِّي نفسه ببناء مستقبل أو حتى أن يظفر بزوجة رغم إتمامه الثلاثين، ولكن لم يعر الأعوام اهتمامًا ولا حتى بمشاعر «أمل» التي كانت تبثه الحب خفاءً، لم يكن زهدًا منه في الحب، ولكنه كان يرى أنه لا يصلح له.

انتشله صوتُها الرقيق من أفكاره وهي تنادي عليه في خفوت من بين المقعدين المقابلين له قائلة:

- عامر.. إحنا هنوصل إمتى؟

نظر في ساعته بعينيه البنيتين في انتباه؛ فوجدها الحادية عشرة وبضع دقائق فردَّ قائلاً:

- أعتقد ساعة ونص بالكتير إن شاء الله.

التفتت أمامها في تململ وهي تعتدل في جلستها.. تلك هي «أمل» التي تحمل الحب كخبيئة في قلبها لمن لا يفصلها عنه سوى بضعة

سنتيمترات ولا تقوى على أن تصرِّح به له؛ فما إن تنظر إلى عينيه الحادتين حتى تذوب الكلمات على أعتاب شفتيها فتعود أدراجها إلى قلبها صاغرة لا تقوى على البوح ولا حتى الكتمان الذي تفضحه بعينيها عندما تنتقلان بين عينيه البُنيَتين في رجاءٍ علَّه يشعر بها.. كانت تعلم أنه يشعر ولكنه لم يستسلم يومًا لندائها التي تبثه له حتى في أحلك الظروف.. وهل هناك أحلك مما يمران به اليوم.. لا تعلم ربما يأتي الأحلك، ولكن لا تعلم سوى أن الظلام اجتمع في عينيّ «عامر» فأصبح لا يبصر أحدًا سوى «بيان».

ظل «عامر» يراقب صورة «بيان» المنعكسة على زجاج الحافلة مع الطريق الذي ارتسم على وجهها فيطبع اصفرار الصحراء على محياها وهي الفتاة القمحية.. لم تكن تحتاج إضافة رمال الصحراء لتكسبها اصفرارًا هي في غنىً عنه.. اكتسبته من سنوات عِجاف فعلت بها الأفاعيل فتبدَّلَت من فتاةٍ إلى زوجة، إلى أم كادت أن ترتكب جريمة في حقها وحق كل ممن حولها..!

التمعت في عيني «عامر» بضع دموع ابتلعها في صمتٍ وأرجع رأسه للوراء علَّها تعود إلى منبعها في صمت، ولكن لم تعد وآثرت الركون على جفنيه فخبئها بكلتا يديه وعاد من جديد إلى اهتزاز الحافلة الذي لا يختلف كثيراً عن اهتزاز روحه تجاه المجهول الذي يسير إليه.

عادت «أمل» من جديد تبثه اهتمامًا لا طاقة له به قائلة:

- مالك؟ إنت كويس؟

نظر في عينيها لا يعلم ماذا يقول فردَّ عليها بإيماءة كاذبة أن: «نعم بخير».. ولكن لم يسعه صوته أن يغلِّف الكذبة بكلمات سخيفة

مثـل هـذا السـؤال البـالي الـذي لا يمـلّ أحـدٌ مـن طرحـه ولا نَمِـلُّ أيضًـا مـن الكـذب في الـرد عليـه معلنـين بمنتهـى الفخـر «نعـم إننـا بخـير»، هـي أيضًـا تعلـم أنـه يكـذب ولكـن كانـت قـد اشـتاقت لصوتـه فحرمهـا منـه فاختلسـت النظـر إلى عينيـه اللتـين كانتـا تنبئـان بقيـام حـربٍ ضاريـة عـلى أعتابهـا فكسـتها حمـرةٌ معلنـةً استسـلامها لملـح لم تعتـده.. ملـح الدمـوع التـي يحتبسـها في جوفـه ويـأبى كبريـاؤه أن يجعلهـا تنسـاب الأطفـال.

ليتنـا نطالـع الحيـاة كالأطفـال؛ نـرى بهـا كل شيء مبهـرًا ورائعًـا، ولا نـدرك مـن الحيـاة أي شيء سـوى تلـك الصـورة الزجاجيـة التـي تبثنـا وهـج الحيـاة غـير ممتلكـين منـه شـيئًا سـوى ألعـاب تافهـة تسـعدنا ونضحـك بهـا.

الحيـاة قاسـية جـدًّا عـلى مَـن هُـم مثلنا.. مـن يعيشـون الحياة البسـيطة يحاولـون العَيـش، ولكـن تـأبى الحيـاة أن تربِّـت عـلى قلوبهم ربتـات مطمئنة وكأنهـا تقـول لهـم (هنـاك أُنـاس لم تُخلـق لهـم الحيـاة.. ويكابـدون معانـاة الوصـول للموت).

أطلـت عليهـم مشـارف القاهـرة فـازدادت دقـات قلوبهـم.. «بيـان» في عالمهـا الخـاص، أمـا «أمـل» و «عامـر» فـكان القلـق قـد اسـتبد بهـما.. «عامـر» كَسـت وجهـه علامـاتٌ أكـثر حـدة أمـا «أمـل»؛ فحاولَـتْ أن تسـيطر عـلى لهـاث قلبهـا الـذي يـكاد يُسـمِع «بيـان» التـي هـي فاقـدة للسـمع.. والنطـق أيضًـا..!

وصلـت الحافلـة بـين صيـاح الحمالـين وبـين نـداء سـائقي سـيارات الأجـرة، وبـين تكالـب المسـافرين عـلى اسـتخراج حقائبهـم مـن باطـن الحافلـة وكأنهـم في غرفـة ولادة متعسـرة.. أمـا هـم فلـم يكونـوا يحملـون